بسم الله الرحمن الرحيم

«يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ» ٢٩ شَعْبَانَ ١٤٤٦هـ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: أُوصِي نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ ﷻ، فَهِيَ زَادُ الْمُؤْمِنِ، وَدَلِيلُ الْحَائِرِ، مَنْ تَمَسَّكَ بِهَا غَنِمَ، وَمَنْ نَأَىٰ عَنْهَا غَرِمَ، هِيَ الْوِقَايَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ عَذَابِ رَبِّهِ، ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ الزَّمَانَ يَدُورُ كَمَا تَدُورُ الرَّحَىٰ، عَشِيَّةٌ تَمْضِي وَتَأْتِي بُكْرَةٌ، وَالنَّاسُ فِيهِ بَيْنَ مُقِلٍّ وَمُكْثِرٍ، وَكَادِحٍ وَرَاقِدٍ، وَجَادٍّ وَهَازِلٍ، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا.

وَالسَّعِيدُ مِنْهُمْ مَنْ عَرَفَ حَظَّهُ مِنْ مَوَاسِمِهِ فَاغْتَنَمَهَا، وَشَمَّرَ عَنْ سَاعِدِ الْجِدِّ، وَمَا فَرَّطَ فِيهَا؛ فَإِنَّ فِي مَوَاسِمِ الْخَيْرَاتِ لَمَرْبَحًا وَمَغْنَمًا، وَفِي أَوْقَاتِ الْبَرَكَاتِ وَالنَّفَحَاتِ لَطَرِيقًا إِلَىٰ اللهِ وَسُلَّمًا، يُوَفَّقُ إِلَيْهَا السَّاعُونَ الْمُجِدُّونَ، وَيُذَادُ عَنْهَا الْكَسُولُونَ الْقَعَدَةُ، وَالزَّمَنُ إِبَّانَ ذَلِكُمْ كُلِّهِ وَحِيُّ التَّقَضِّي، بَطِيءُ الرُّجُوعِ، مَنْ فَرَّطَ فِي لَحْظَةٍ مِنْهُ فَلَنْ يُدْرِكَهَا مَرَّةً أُخْرَىٰ؛ لِأَنَّ مَا مَضَىٰ فَاتَ، وَالْمُؤَمَّلُ غَيْبٌ، وَلَيْسَ لِلْمَرْءِ إِلَّا سَاعَتُهُ الَّتِي هُوَ فِيهَا، **فَيَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ.**

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ قُلُوبَ الْبَشَرِ يَعْتَرِيهَا مَا يَعْتَرِي غَيْرَهَا مِنْ عَوَامِلِ التَّأْثِيرِ؛ فَقَدْ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ، وَتَجِفُّ كَمَا يَجِفُّ الضَّرْعُ، وَتَيْبَسُ كَمَا يَيْبَسُ الزَّرْعُ، فَهِيَ أَحْوَجُ مَا تَكُونُ إِلَىٰ مَا يُعِيدُ مَادَّةَ النَّمَاءِ إِلَيْهَا فَيُجْلِي صَدَأَهَا، وَيُدِرُّ جَفَافَهَا، وَيُنْبِتُ يَبَسَهَا، فَإِنَّ النَّفْسَ قَدْ تَلْهُو مَعَ زِحَامِ الْأَيَّامِ وَكَدَحِهَا، حَتَّىٰ تَتَرَاكَمُ عَلَيْهَا الشَّوَاغِلُ، فَتَحْجِزَهَا عَنْ مُقَوِّمَاتِ التَّصْفِيَةِ وَالتَّخْلِيَةِ، فَضْلًا عَنْ شَحْذِهَا وَتَحْلِيَتِهَا.

عِبَادَ اللهِ: أَلَا إِنَّ الشَّهْرَ الَّذِي سَيُظِلُّكُمْ بَعْدَ سَاعَاتٍ لَهُوَ خَيْرُ مُعِينٍ عَلَىٰ ذَلِكُمْ كُلِّهِ، إِنَّهُ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾. إِنَّهُ شَهْرُ الْبِرِّ، وَالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ، وَالرَّحْمَةِ وَالتَّرَاحُمِ، شَهْرُ لِجَامِ الشَّهْوَةِ، وَقَصْرِ النَّفْسِ وَأَطْرِهَا عَلَىٰ الْبِرِّ أَطْرًا، وَإِخْرَاجِهَا مِنْ دَائِرَةِ

تَوَهُّمِ الْكَمَالِ الزَّائِفِ، الَّذِي يُشَكِّلُ حَاجِزًا وَهْمِيًّا آخَرَ يَحُولُ دُونَ اغْتِنَامِ الْفُرَصِ، وَانْتِشَالِ النَّفْسِ، كَذَلِكُمْ مِنْ كَثْرَةِ الِاشْتِغَالِ بِمُبَاحَاتٍ تُزَاحِمُ الطَّاعَاتِ، فَيَنْغَمِسُ الْمَرْءُ فِيهَا حَتَّىٰ يَثْقُلَ، وَيَرْكَنَ إِلَيْهَا حَتَّىٰ يَبْرُدَ، فَيُفَوِّتُ مِنَ الطَّاعَاتِ مَا يَجْعَلُهُ أَسِيرَ هَوَاهُ وَكَسَلِهِ وَرُكُونِهِ.

أَلَا إِنَّ هَذَا الشَّهْرَ الْمُبَارَكَ شَهْرُ الِاسْتِزَادَةِ مِنَ التَّقْوَىٰ، وَلَيْسَ ثَمَّةَ أَحَدٌ يَسْتَغْنِي عَنِ الِاسْتِزَادَةِ مِنَ الطَّاعَةِ، وَالتَّفَرُّغِ لَهَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا عَنْ صَقْلِ قُلُوبِنَا وَتَخْلِيَتِهَا، اسْتِعْدَادًا لِتَحْلِيَتِهَا، وَإِنَّ فِي بَعْضِ الْقُلُوبِ لَقَسْوَةً، فَلْتَسْتَلْهِمْ خُلُقَ الرَّحْمَةِ مِنْ رَمَضَانَ. وَإِنَّ فِي بَعْضِ الْأَمْوَالِ لَجَفَاءً، فَلْنَلْتَمِسْ لَهَا النَّمَاءَ وَالزَّكَاءَ فِي رَمَضَانَ. وَإِنَّ فِي بَعْضِ الْأَلْسُنِ لَسَلَاطَةً وَحِدَّةً، فَلْتَلْتَمِسْ طِيبَ الْكَلَامِ فِي رَمَضَانَ. وَإِنَّ فِي بَعْضِ الْجُسُومِ لَكَسَلًا، فَلْتَلْتَمِسِ الْقُوَّةَ وَالْهِمَّةَ فِي رَمَضَانَ. إِنَّهُ شَهْرٌ مُتَكَامِلٌ يَجْمَعُ كُلَّ مُقَوِّمَاتِ التَّقْوَىٰ لِمَنْ يَبْحَثُ عَنْهَا، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، **فَيَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ.**

إِنَّ الْمَرْءَ الْغَيُورَ لَيُؤْسِفُهُ أَشَدَّ الْأَسَفِ مَا يَرَاهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْمُبَارَكِ مِنْ سُلُوكِ طَرِيقٍ تَقْلِيدِيَّةٍ يَحْكُمُهَا طَبْعُ الْعَادَةِ وَالرَّتَابَةِ، لَا طَبْعُ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ، دُونَ تَأَمُّلٍ مِنْهُمْ بِأَنَّ هَذَا الشَّهْرَ الْمُبَارَكَ شَهْرٌ تُشَدُّ النُّفُوسُ فِيهِ إِلَىٰ رَفْعِ دَرَجَةِ الْقُرْبِ مِنْ دِينِ اللهِ.

يُذَكِّرُهُمْ هَذَا الشَّهْرُ بِحَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ، تُشَمُّ رَائِحَةُ الْعَاطِفَةِ الْإِيمَانِيَّةِ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَجْلِسٍ يُجْلَسُ فِيهِ، يُحَسُّ فِيهِ بِإِقْبَالِ النَّاسِ عَلَىٰ الْعِبَادَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، حَتَّىٰ إِنَّهُمْ لَيَرْفَعُونَ بِذَلِكُمْ دَرَجَةَ الِاسْتِعْدَادِ لِتَغْيِيرِ مَا فِي نُفُوسِهِمْ، حَتَّىٰ يُغَيِّرَ اللهُ مَا بِهِمْ، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

عِبَادَ اللهِ: فِي شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ تَرْتَفِعُ مَعَايِيرُ الْقُوَّةِ لَدَىٰ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ؛ بِحَيْثُ يَصْعُبُ اضْطِرَابُهُ إِنْ

أَحْسَنَ الطَّاعَةَ فِيهِ، وَأَدْرَكَ سِرًّا عَظِيمًا مِنْ أَسْرَارِ هَذَا الشَّهْرِ الْمُبَارَكِ، مُتَمَثِّلًا فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النِّيرَانِ، وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

أَلَا يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ بِلَا قُرْآنٍ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ كَمَنْ يُرِيدُ حَيَاةً بِلَا مَاءٍ وَلَا هَوَاءٍ، وَإِنَّ صِلَةَ بَعْضِ الصَّائِمِينَ بِكِتَابِ رَبِّهِمْ صِلَةٌ رَتِيبَةٌ، لَا تَعْدُو كَوْنَهَا تَمْتَمَاتٍ يَهُذُّونَ بِهَا آيَاتِ الْقُرْآنِ هَذًّا، لَا يَدْرُونَ مَا قَرَأُوا، وَلَا يَفْهَمُونَ مَا تَلَوْا، هَمُّ أَحَدِهِمْ آخِرُ السُّورَةِ، فَيَقَعُ فِي عِلَلِ مَنْ عَابَهُمُ اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، أَيْ: لَا يَعْلَمُونَهُ إِلَّا تِلَاوَةً لَا تُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، فَلَرُبَّمَا تَفَنَّنُوا فِيهِ بِاللَّحْنِ، وَتَشَدَّقُوا بِالنُّطْقِ، فَأَلْهَاهُمْ هَذَا وَذَاكَ عَنْ سُهُولَةِ الْقِرَاءَةِ، وَحُسْنِ التَّدَبُّرِ. نَقَلَ الْإِمَامُ ابْنُ الْجَزَرِيِّ فِي كِتَابِهِ «النَّشْرِ فِي الْقِرَاءَاتِ الْعَشْرِ» عَنِ الْحَافِظِ أَبِي عَمْرٍو الدَّانِيِّ - أَحَدِ أَئِمَّةِ الْقِرَاءَاتِ وَالتَّفْسِيرِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ - رَحِمَهُ اللهُ : فَلَيْسَ التَّجْوِيدُ بِتَمْضِيغِ اللِّسَانِ، وَلَا بِتَقْعِيرِ الْفَمِ، وَلَا بِتَعْوِيجِ الْفَكِّ، وَلَا بِتَرْعِيدِ الصَّوْتِ، وَلَا بِتَمْطِيطِ الشَّدِّ، وَلَا بِتَقْطِيعِ الْمَدِّ، وَلَا بِتَطْنِينِ الْغُنَّاتِ، وَلَا بِحَصْرَمَةِ الرَّاءَاتِ، قِرَاءَةٌ تَنْفِرُ عَنْهَا الطِّبَاعُ، وَتَمُجُّهَا الْقُلُوبُ وَالْأَسْمَاعُ، بَلِ الْقِرَاءَةُ السَّهْلَةُ الْعَذْبَةُ الْحُلْوَةُ اللَّطِيفَةُ، الَّتِي لَا مَضْغَ فِيهَا وَلَا لَوْكَ، وَلَا تَعَسُّفَ وَلَا تَكَلُّفَ، وَلَا تَصَنُّعَ وَلَا تَنَطُّعَ.

عِبَادَ اللهِ: أَلَا إِنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ لَفُرْصَةٌ كُبْرَىٰ فِي أَنْ يُطَهِّرَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ، بِالصَّوْمِ فِي النَّهَارِ حَتَّىٰ تَتَهَيَّأَ لِتَدَبُّرِ آيَاتِ الْقُرْآنِ فِي اللَّيْلِ، فَإِنَّ سَاعَاتِ اللَّيْلِ أَجْمَعُ عَلَىٰ التِّلَاوَةِ؛ لِأَنَّ الصَّوْمَ بِالنَّهَارِ تَخْلِيَةٌ، وَالْقِيَامَ بِالْقُرْآنِ فِي اللَّيْلِ تَحْلِيَةٌ، وَاللهُ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الشَّهْرَ الْمُبَارَكَ يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ مَعْنَىٰ الْجُودِ وَالْإِنْفَاقِ وَالشَّفَقَةِ، هُوَ شَهْرُ النُّفُوسِ السَّخِيَّةِ، وَالْأَكُفِّ النَّدِيَّةِ، شَهْرٌ يَشْرَئِبُّ فِيهِ الْمَنْكُوبُونَ إِلَىٰ أَيَادِي ذَوِي الْيَسَارِ وَالْجِدَةِ.

فَلْيَكُنْ لِلْمَرْءِ فِي ذَلِكُمْ سَهْمٌ رَاجِحٌ، وَلَا يَتَرَدَّدَنَّ لَحْظَةً وَاحِدَةً فِي كَفْكَفَةِ دُمُوعِ الْمُعْوِزِينَ وَالْيَتَامَىٰ

وَالْأَرَامِلِ، مِنْ أَهْلِ بَلَدِهِ وَمُجْتَمَعِهِ، وَلَا يَشُحَّنَّ عَنْ سَدِّ مَسْغَبَتِهِمْ، وَتَجْفِيفِ فَاقَتِهِمْ.

وَحَذَارِ حَذَارِ مِنَ الْبُخْلِ وَالْإِقْتَارِ؛ فَإِنَّهُمَا مَعَرَّةٌ مَكْشُوفَةُ السَّوْءِ، نَاهِيكُمْ عَنْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدِ اسْتَعَاذَ بِرَبِّهِ مِنْهُمَا، وَهُوَ مَنْ كَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حَتَّىٰ يَكُونَ كَالرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ.

ثُمَّ إِنَّ هَذَا التَّحْضِيضَ غَيْرُ قَاصِرٍ عَلَىٰ ذَوِي الْمَسْكَنَةِ وَحَسْبُ؛ بَلْ إِنَّهُ لَيَرْتَدُّ أَمَانُهُ وَبِشَارَتُهُ إِلَىٰ الْبَاذِلِينَ أَنْفُسَهُمْ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَىٰ تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ عَلَىٰ جِلْدِهِ، حَتَّىٰ تُخْفِيَ بَنَانَهُ، وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَلَا تَتَّسِعُ»؛ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ ذَا الْجُودِ وَالسَّخَاءِ إِذَا هَمَّ بِالصَّدَقَةِ انْشَرَحَ لَهَا صَدْرُهُ، وَطَابَتْ بِها نَفْسُهُ، وَتَاقَتْ إِلَىٰ الْمَثُوبَةِ، فَتَوَسَّعَ فِي الْإِنْفَاقِ، وَلَا يَضِيرُهُ الْحَدِيدُ، بَلْ هُوَ يَتَّسِعُ مَعَهُ حَيْثُمَا اتَّسَعَ، بَيْدَ أَنَّ الْبَخِيلَ الْقَتُورَ إِذَا حَدَّثَ نَفْسَهُ بِالصَّدَقَةِ جَبُنَ عَنْهَا، وَضَاقَ صَدْرُهُ، وَانْقَبَضَتْ يَدَاهُ، وَأَحَسَّ كَأَنَّمَا يُنْفِقُ مِنْ عُمُرِهِ وَفُؤَادِهِ، حَتَّىٰ يَعِيشَ فِي أَنَانِيَّةٍ ضَيِّقَةٍ لَا يَرَىٰ فِيهَا إِلَّا نَفْسَهُ، غَيْرَ مُكْتَرِثٍ بِذَوِي الْحَاجَةِ وَالْفَاقَةِ، وَإِنَّ هَذَا وَأَمْثَالَهُ قَدْ وَضَعُوا الْإِصْرَ وَالْأَغْلَالَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَجَعَلُوهَا مَغْلُولَةً إِلَىٰ أَعْنَاقِهِمْ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾.

أَلَا إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَشَدَّ عَلَىٰ الشَّيْطَانِ، وَأَبْطَلَ لِكَيْدِهِ، وَأَدْحَرَ لِوَسْوَاسِهِ مِنْ صَدَقَةٍ طَيِّبَةٍ، يُعْلِنُ بِهَا الْبَاذِلُ انْتِصَارَهُ عَلَىٰ هَوَاهُ، وَعَلَىٰ الشَّيْطَانِ فِي تَخْوِيفِهِ، وَمَا يَعِدُ بِهَا الْعِبَادَ مِنَ الْفَقْرِ، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾، ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. فَذَلِكُمْ وَعْدُ الشَّيْطَانِ، وَهَذَا وَعْدُ اللهِ، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

فَيَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ.